الحركتان الصالحتان (١)

نحن في عصر تلخصت فيه نتائج الماضي وتهيأت عنده مقدمات المستقبل. نحن في عصر تجمعت فيه جهود ستة آلاف سنة، وتلاطمت في جوّه انفعالات المراتب واطماع الامم. عصران اثنان لهما بعصرنا شبهٌ وهما: عصر انهيار الدولة الرومانية في مطلع القرون الوسطى، وعصر النهضة والتجدُّد في ختام هاتيك القرون

على انهما صورتان مصغّرتان للمأساة الخطيرة الممثلة على مرسح هذه الايام، والتي لم تكن الحرب الكبرى الاّ فصلاً من فصولها المشتبكة

اليوم نرى النفس العامة كنفوس الافراد، قلقةً مضطربة لا تستقرّ ولا تتجلد، بل تشرّح اوجاعها، وتفحص عللها فتصرخ تارةً وتهدّد اخرى طالبةً الشفاء والتآسي. اليوم يخرج بنو الانسان على قرارات الاحقاب ممزقين ما ورثوا من النظم، سابكين نظماً اخرى في قوالب عصرية، موجدين نظماً جديدة تتفق مع الحاجات والمطالب. وفي وسط هذا الاضطراب، وذاك التنازع، وذياك التمزّق حيث يختلط العزّ بالهوان والاخلاص بالنفاق — تتبينُ حركتين صالحتين، حرّف المغالون منهما ايضاً المعنى والمرمى، ولكنهما في حدودهما الطبيعية نبيلتان، مشروعتان، جوهريتان لان احداهما قوام العائلة والاخرى قوام العمران

وبلادنا التي تلقّت من الالوهية كلمة الحب الاولى فنزع الوحيُ فيها شمساً توزّعت اشعتها على العالم، بلادنا التي حفظ ابناؤها من اثر ذلك الوحي بداهة تدرك كلّ مظهر وتكتنهُ كل معنى — أقول بافتخار اني رأيتُ هاتين الحركتين في بلادنا في احوال شتى خلال هذا الصيف. ولكنني ما رأيتهما أتمّ واوضح منهما اليوم في بيروت قريحة سوريا الجوّادة وهمتها النهّاضة الطامعة بين قوة الامواج الملاينة وقوة الجبل المنيعة

اما احدى الحركتين فهي تحرير المرأة الذي هو قوام النهضة العائلية

تعلمون، ايها السادة والسيدات، ان من سرّاتنا الكبرى الحصول على

(١) (المقتطف) هي الخطبة النفيسة التي ألقتها الانسة بي في الاحتفال الذي اقامته عصبة الادب البيروتية اكراماً لها

موافقة امثالنا والفوز باستحسانهم ورضاهم . على اننا نخجل كثيراً عند ما نسمع منهم كلمات الثناء والاطراء . ولكن احكموا عليَّ بما شئتم ، فذلك لا يثنيني عن المصارحة بأني في هذه الجلسة قد انتقلت من قيود الشخصية الفردية . فكبرتُ ونموتُ وتضاعفتُ متعددةً متكاثرة حتى صرتُ النوع النسائي كله في امس الشرق ويومه . عندئذٍ لم اعد ارى الفرد الواحد في الخطيب منكم والشاعر ولم يعد الكلام موجهاً الى شخص معين . بل خيّل اليَّ ان حجاب الدهور قد أزيح عن رجال الشرق في الماضي والحاضر ، وتصورتهم يوحدون والمتكلم ، مستغفرين عما جنوا ضد المرأة وضد نفوسهم وضد الوطن سهواً وجهلاً . والرجل الذي عهدناهُ سيداً ظالماً جائراً مستبداً — كما يقول الوشاة — انقلب ذلك الصديق الجادّ المثقف . ويدهُ التي اعتادت اشارة الضغط والسحق والاستخفاف — كما يقول الوشاة — انقلبت فجأةً يداً صديقة ترسم تلك الاشارة الانيقة العطوفة المثيرة الحامية : اشارة ضفر اكليل العز لرأس الفتاة الشرقية . ولئن رأيت في تلك الاشارة تكفيراً عن الماضي فقد رأيتُ فيها كذلك وعداً بمتابعة تمهيد المرأة في سبل النور والعرفان

بدت تلك الصورة وتلك الاشارة فارتعشت نفسي وتسابى معنى تأثري ، وتحوّل الخجلُ عندي كرامة وقبولاً . فرفعت عينيَّ احدق في الخطيب والشاعر ، وكأن المرأة المظلومة منذ ابتداء الدهور كانت تقول لهُ بسكوتي : « ايها الرجل ، لقد احسنت ! احسنت لانك كفّرت ، احسنت لانك انصفت ! »

ايها السادة الرجال ، لقد سمعتم هنا اخواتي الاديبات السوريات فعلمتم ان ان بيانهن العذب وعواطفهن الرقيقة ، وافكارهن النيرة تحفظ مكانتها قرب بيانكم الالمعي الجارف وافكاركم القديرة المتأثرة . ألا فليكن لكم من رقيهن ميثاق وقدوة جميلة ! اذكروا هذا عند ما تعودون الى منازلكم وانظروا الى المرأة الماثلة في محيطكم وتحت نفوذكم ، انظروا الى الام ، الى الزوجة ، الى الاخت ، الى الابنة نظرةً جديدةً — نظرة من انتبه لواجب طالما اهملهُ . ولا تقصروا التشجيع عليَّ انا ابنتكم المارة بينكم مروراً سريعاً بل ظلوا عاملين على تحرير المرأة التحرير المنشود حتى تسمعوا من نفوسكم تلك الشهادة البديعة : « ايها الرجل لقد أحسنت ! أحسنت لانك كفّرت ، احسنت لانك انصفت ! »

اذا كانت الحركة الاولى هي تحرير المرأة والحركة الاخرى هي تحرير الوطنية الوطنية ! يا لها من كلمة ساحرة مبهمة كل فكر ، الملهبة كل قلب ، الشاحذة كل عزيمة ! لقد كانت دواماً عظيمة حتى في معناها الضيق يوم كانت تحسب البلاد كل العالم ، واهل البلاد الشعب المصطفى الاوحد . ولقد كانت في معناها الواسع عاطفة رحيبة امتازت بها النفوس الحرة في كل زمان ومكان . غير انها شاعت وصارت لكل امة ناهضة منذ قرن وبعض قرن بعد ان هدم بنو الفرنسيس جدران البستيل ناشرين على حدود الوطنيات أعلام الثورة الفكرية ، وجاعلين الاقطار تتجاوب اصداؤها بتلك الآيات الثلاث المطنة حقوق الانسان وهي — من ذا لا يعرفها؟ — : حرية ، مساواة ، اخاء

ونحن الجيل الجديد في الشرق ، المدرك علاقة الشعوب بالشعوب واشتباك المنافع بالمنافع ، نحن الجيل الجديد المستنير ، المتلظي ، المغتبط بالعيشة في هذا العصر المتفرد بصعابه وممكناته — نحن اتسعت منا الوطنية وتكيفت اذا بها مع ذلك الحب العتيد القديم ، قد فتحت صدرها لتشمّع الانوار الجديدة

وطنيتنا الحديثة طبيعية ، لان الروح اذا هي تاقت الى ملأ أعلى لا يحدّه زمان او مكان والجسد يحب الحدود . ويشوق الى الجدران ويتعلق بالامكنة والازمنة بتذكاراته وجهوده واحزانه . وطنيتنا الحديثة عائلية لانها تريد ان تمكن المرأة من انماء مداركها وتأدية وظيفتها ليس بمقاتلة الرجل ومكافحته بل بتمضيده ومساعدته . وطنيتنا الحديثة عملية نشيطة تنكر التواكل والاستسلام مقدرة الاتكال على النفس واتقان العمل كائناً ما كان . وطنيتنا الحديثة عصرية لانها تساير حركة التقدم في العالم ، ومع محافظتها على المحامد المقامية تحتضن كل جديد مفيد منشئة عندها المسابقة والابتكار . وطنيتنا الحديثة اخوية ودودة لان مساوىء التحزّب والانقسام نخرت عظامنا فهمنا اخيراً ان عبادة الفرد لباريه لا تحول دون التفاهم مع جاره . وطنيتنا الحديثة رصينة مقتصدة لا تطلب من ابنائها التضحية على غير هدى بل تريد التوفيق ما امكن بين مصالح الافراد ومصالح الجمهور ، لان البلاد لا تكون سعيدة بشقاء ابنائها . وطنيتنا الحديثة مقدسة لانها ارث الجدود والموتى ، حارّة لانها عجنت بدماء الشهداء واختمرت بانفاسهم الاخيرة ، متينة لانها تماسكت اجزاؤها بآلام الاحياء ونبضات قلوبهم . وطنيتنا الحديثة

روحانية لانها شرقية تعلم ان الفرد الواحد يلمس الانسانية من جميع اطرافها وان من خاطب قومهُ بذلك الاخلاص المنبثق من اغوار روحهِ فقد خاطب سكان البسيطة باسرها. الاّ انها تعلم كذلك ان من نصب نفسهُ لخدمة الناس جميعاً اوشك ان لا يخدم احداً . لذلك نحن نعزّز القومية التي تجعل المرء قوة فاعلة في جانب من الجوانب ، نعززُ القومية عالمين أن من ادّى واجبهُ في محيطهِ كان مؤدياً ما عليهِ نحو الانسانية من واجب عام

فان انا شكرت لعصبة الادب غيرتها على الادب واحتفاءها بي ، فاني اشكر كذلك جميع الذين ساعدوها على جعل هذا الاجتماع مظهراً فخماً من مظاهر الرقي الفكري والقومي في بيروت . اني سعيدة بان ارى في هذا النادي اخواني واخواتي من مختلف المذاهب والطوائف،سعيدة باستماع هذه الخطب الجميلة والقصائد المفعمة من ذوي الفضل العميم على الادب العربي والنهضة الحديثة ، سعيدة بان اكون الليلة موضوع عطفكم المذهب المتنوّع ، الذي يكاد لسعتهِ يتعداني شاملاً اهل الفكر والادب من اللبنانيين والسوريين القائمين

ان عطفكم هذا يحيط بي مؤثراً كالطرب مشوقاً كالامل ، مؤاسياً كالذكرى ، قوياً كالشباب ولكنهُ ايضاً آمرٌ كالواجب صارمٌ كالمسؤولية

سأعود الى موطني المصري العزيز وهذه الساعة حيّة فيّ . حتى اذا اهتاجني اسم لبنان فذكرت جمال السحب فيهِ عند الغروب ،وجلال الجبال في زرقة الشفق، وروعة البحر تحت الظلام — حتى اذا اهتاجني ذلك الحنين الوجيع اليهِ رأيتني بينكم مرة اخرى واماي السبيل التي عليّ ان اسلكها — اذن ساهتف بما يهتف بهِ كلّ واحد منا ساعة اليقظة والتحمس للعمل قائلة : وطني يحتاج اليّ احتياجهُ الى كل فردٍ من ابنائهِ وبناتهِ . وطني يحتاج اليّ وعيون اخواني ترعاني . اريد ان ابعث حي لابناءوطني لحياً . اريد ان اسكب نفسي في نفوس ابناء وطني كوثراً. اريد ان انسى صغائر الحياة وظلم الحياة وقيود الحياة لارتفع فوق ذاتي فاضاهي ابناء وطني رفعةً وجمالاً . اريد ان اتصب فاتقن عملي واسير وابناء وطني في سبيل التقدم خطوةً . اريد ان احيا— اريد ان احيا رغم الجراح والآلام لاكون في حياة وطني الناهض حياة

« يّ »